عمر الخيام — ٣

بحث وتحليل

وهناك ناحية أخرى من نواحيه الفلسفية . تلك هى بحثه فى الحياة الأخرى ونظره إليها ومحاولته الوقوف على القوة المسيرة للكائنات . وقبل أن أدخل فى هذا البحث أقول إن الملاحظة والتجربة دلتا على أن العقل البشرى لا يمكنه مهما تما أن يصل الى كنه الأشياء .

يعترف الخيام بوجود الاله ، وأنه خالق كل شىء ، ويعتقد بأن الانسان مسير فى هذه الحياة لا مخير وأن القضاء والقدر بيدى الله . وألا حيلة للمرء فى أمر من الأمور . وهذا حسن فى ذاته لو أن منطق الخيام سار على هذه الوتيرة . غير أنه مع الأسف الشديد لم يقتنع بحديث الحياة الأخرى وما يتبعها من البعث والنشور والحساب والجنة والنار ، بل يقول لا حياة بعد الدنيا وأن الانسان لا يرجع بعد الموت ، بل يحول ترابا تتغذى به النباتات . ويدلنا على ذلك قوله :

واحتضن فى كرة العمر الرقيف كل غصن أهيف القد رهيف
قبلما تحضنك الأم العطوف فى حشاها حين تلقى الأجلا
ليس للثاوى بملحود متاع

والأم العطوف هنا هى الأرض . وقوله :

تبا لى إن غدا أهل الجنان زمرة النساك أعداء الدنان
والأقانى أى خير تبتغيان بعد ذا فى جنة الخلد وما
ضمنت ، لاحبذا فيها المقام

هالنى الا أرى ممن عرا منهج الموت المخوف المنكرا
عائدا يروى لنا ما أبصرا فى طريق مظلم لن يعلما
ما جواه غير وراد الحمام

فهو يقول إن الواجب على الانسان أن يجتنى اللذات ما يمكنه قبلما يموت إذ لا رجعة بعد الموت ، ويخبر صاحبه بأن الجنة ليست بمضمونة حتى لا يضيع لذة الدنيا الحقيقية بلذة الجنة الخيالية . وقد حاله أن لم ير واحدا ممن ماتوا يرجع ليروى للناس ما رآه فى طريق الموت المظلم . وهذا تفكير خاطىء . بطبيعة الحال . وفى اعتقادى أن الخيام لم يهضم الفلسفة القديمة

فقد قرأها وأحب أن ينسج على منوالها حتى يصل إلى الحقيقة ولكنه أخطأ التوفيق إذكان من الواجب عليه أن يتنبه إلى دراسته الفلسفية دراسة الأديان ومافيها من البراهين الساطعة على وجود الحياة الأخرى .

ويظهر أن سيره كان قليلا فانه لما فكر ولم يتقدر بطائل أخذ يرأيه وجاهر به بين الناس فخرج على مبتغاه وكره البحث فى العلوم الالهية فانصرف عنها وحقرها ونددبأعمال الصوفيين والباحثين فى الروحانيات واعتكف على شرب الخمر والتغنى بمحاسنها وانقطع لدراسة العلوم الأخرى التى لاتقبل جدلا ولا إنكارا وهاهو قد لحق بفيثاغورث وأصحابه .ثم هاهى بعض رباعياته تؤيدنا فى هذا الموقف فقد قال :

كم شيوخ وفسوس أكثروا فى انتقاد الكون حتى ثرثروا
بالغوا فى الحدس حتى هذروا ثم سل الموت منهم مقولا
وغدت أفواههم سقط متاع

وقال: دع رجال العلم فى شغب الجدال ينفقون العمر فى قيل وقال
كل شىء فى الورى إفك محال غير موت بات يطوى أملا
ليس يذكو بعد مايخبو شعاع

وقال: طالما خضنا غمار الفلسفة وسمعنا من صواب وسفه
وخبطنا فى مضل معسفة ثم صرنا حيث كنا أولا
لم نسر حول الهدى قيد ذراع

وقد كانت هذه العقيدة الراسخة فى نفس الخيام شؤما عليه فى حياته وبعد مماته فأنه على الرغم من إكرام السلطان له وإعانته إياه لم يفتر من ملوائف زمانه برضى فتألبوا عليه ورموه بالزندقة ولم يكترثوا بآرائه وهو بينهم . أما بعد موته فقد أبوا عليه تشييد مدفن يلائمه لانهامه بالخروج على الدين وأحكامه . ولولا أن قيض الله له من محبى البحث والاستقصاء من رفع مكانته ونشر رباعياته فى العالم المتمدين لظل مجهولا أبد الدهر .

والذى رفع ذكرى الخيام وجعلها تسير مع كل زمان ومكان هو أنك إذا قرأت شعره أحسست بأثر عميق فى نفسك لاتدرى له مصدرا ونسيت مايقوله فى الخمر ومدحها وتشعر وأنت تقرأ كلامه بأن الرجل أمامك وجها لوجه يحادثك وأنت منصت له ويأتيك بالأدلة على مايقوله وأنت عاجز عن نقضها أو تكذيبها ،تأمل فى جاذبية كلامه حين يقول :

أنظر الورد وأبهاه نما حيث روى الأرض مدفون دما
فهناك الزهر يطفى عندما وخدود الورد تدمى خجلا
وعروش الروض حمراء القناع

وأرى ريحانة المرج المطير أصلها من فرع مفتان سحور
غادة معشوقة الدل تنور فرعها القبنان لما ذبلا
فى ثراه شب ريحانا وضاع
فاذا واقيت عشيا زخرفا شفة من جدول أو فوقا
لاتعث فيه عسوفا متنا فعساه قد نما بعد البلا
من شفاه مستلذات السماع

وقد كان الخيام حضريا فى شعره،رقيقا فى تعبيراته حسنا فى تشبيهاته،وهذا ناتج عن تأثير البيئة فيه،فأن الفرس أمة ذات حضارة وتاريخ مجيد . بها الرياض والبساتين والقصور العالية، وبها شعب عرف النظام من قديم الزمن . وكان الخيام أيضا مولعا بالمظاهر الطبيعية،شغوفا بالتأمل فيها والتحدث عنها فأنت تجده فى كل استشهاداته يذكرك الأشياء الطبيعية التى يعدها الناس الآن من ممزات الشعر الحديث كالرياض وما فيها من الثمار والأزهار،والروابى وماهى عليه من الروعة والجلال

ومن الرباعية الآتية يتحقق مافلناه وهى :

هلمنا إن غاض النهر يفهق وخبا ورد الربيع المغدق
وانطوى سفر الشباب العبق وهزار ناح حينا وهدر
خبروا أنى أتى أو أين طار

بقى على أخيرا أن أشير إلى آثاره فى علم الفلك فقد نبغ فيه نبوغا عظيما حتى أن الملك شاه فوض إليه الأمر فى تعديل التقويم السنوى فقام بمهمته خير قيام . وقد ألف أيضا فى علم النجوم بضعة جداول فلكية . كما ألف أيضا فى العلوم الرياضية .

غفر الله له الذنوب إن كان مذنبا . وعوضه عن آثامه خيرا إن كان محسنا . ونفع الناس بآثاره العلمية المفيدة .

محمد رشاد عبد الفتاح
مدرس بمدرسة بيت الحمر الاولية الثانوية